آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجري

ناظم رشيد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تمهيد: :

ما كادت تنتهي سنوات النصف الأول من القرن السابع الهجري، حتى هبّت من الشرق البعيد زوبعة عاتية سوداء اقتلعت في طريقها كلّ شجرة زرعتها أيدي الخير، ورعتها عيون الحراس الأُمناء عبر قرون عديدة، إنها زوبعة التتر التي حملت معها كلّ اسباب الخراب والدمار، ولم تستطع السدود الواهية صدّها وردّها، والخليفة المستعصم بالله قليل الخبرة والتدبير — كما يصفه المؤرخون — وقد سلّم إدارة دولته الى رجل يدعى ابن العلقمي (ت ٦٥٦هـ) الوزير الذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة، حاك خلالها أخطر مؤامرة دُبّرت على الأمة العربية، ظناً منه أنه يجني من ورائها ربحاً وفيراً، وما كان يعلم أن حتفه فيها، فانه كاتب التتر سرّاً طالباً منهم التوجّه إلى بغداد لينالوا الثراء العظيم مقابل معاضدتهم له في اخراج الحكم من بني العباس لنفسه وأتباعه. فما كان من هولاكو (ت ٦٦٣هـ) إلاّ التوجه الى دار الخلافة، واستباحتها خلال بضعة وثلاثين يوماً، وقتل الخليفة وأولاده وأتباعه وكثير من العلماء والأُدباء بعد جمعهم بحجّة عقد قران ابنته لابن الخليفة الغافل، وجعل كنوز العلم والأدب وقوداً للنيران، ومادة تمدّ مياه دجلة بلون أسود.

وقد أسهبت المراجع والمصادر التاريخية في ذكر تفاصيل المجازر التي حصلت، ويمكن لمن يريد الاستقصاء الرجوع اليها، (١) لأن غايتنا في هذا البحث هي جلاء واقع الأدب في ظلّها.

توزع البحث على دراسة النظم والنثر، وقيمتها التاريخية والاجتماعية، وقد تناولت في دراسة النظم، الشعر الذي قيل في الحيطة والحذر قبل وقوع الكارثة والمجزرة الرهيبة، وشعر الحزن والأسى الذي أطلقه الشعراء بعد

(١) ينظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٨ الحوادث الجامعة ص ٣٢٤ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٤٧ تاريخ ابن الوردى ٢ : ١٠ عصر الانحدار ص ٨ ، الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي للدكتور بشار عواد — مقال في مجلة الأقلام ، العدد ١٢ لسنة ١٩٦٥.

هجوم الجيوش التترية الغازية، وخراب المدن، ومقتل الألوف، وانهيار العز الشامخ، والمجد التليد، وأخيراً شعر البشرى والتهنئة وتمجيد البطولة بعد اندحار التتر في الشام. أما في النثر فقد درست الرسائل والمقامات التي كان لها وقع عظيم في نفوس المسلمين، ودور كبير لا يقل عن دور الشعر آنذاك.

دور الشعر قبل الغزو التتري :

لقد كثر الكلام في الواقع السيء الذي خيّمَ على دولة بني العباس في أخريات أيامها، ولفت نظر الخليفة الى ذلك صراحة كثير من الرجال الغيورين، وحذّروه من مغبّة الغفلة عنه، والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه إن لم يبادر للنهوض إلى إصلاحه وتقويمه، ولكنه صمّ أذنيه، وترك الأمر سائباً، وبقي سادراً في لهوه وملذاته. يقول ابن الطقطقا : «وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعّم واللذّات، لا يراعون له صلاحاً ... وكتبتْ له الرقاع من العوام، وفيها أنواع التحذير، وألقيَتْ فيها الأشعار في أبواب دار الخلافة، فمن ذلك :

قُلْ للخليفةِ مهلاً
أتاكَ ما لا تحبُّ
ها قد دهتكَ فنونٌ
من المصائبِ غُرْب
فانهضْ بعزمٍ والاّ
غشاكَ وَيْلٌ وحَرْبُ
كسرٌ وهتكٌ وأسرٌ
ضربٌ ونهبٌ وسلبُ

كل ذلك وهو عاكفٌ على سماع الأغاني، واستماع المثالث والمثاني، وملكه قد أصبح واهي المباني. (١)

انطلقت ألسنة الشعراء الذين أصيبوا ايضاً بحيف الحكم آنذاك، لتكشف واقع المجتمع الفاسد، الواقف بقدمين مهزوزتين على شفا جرف هار، وتنذر الناس من مصيبة لا تبقي ولا تذر. وكان أجرأ شاعر في هذا الميدان هو مجد الدين النشابي (٢) (ت ٦٥٧ هـ) الذي نظم قصيدة طويلة، أولها (٣) :

يا سائلي ولمحْضِ الحقِّ يرتاد
أصخْ فعندي نشدانٌ وإنشادُ
واسمعْ فعندي رواياتٌ تحقّقها
درايةٌ وأحاديثٌ وإسنادُ
فهمٌ ذكيٌّ، وقلبٌ حاذقٌ يقظٌ
وخاطرٌ لنفوذِ النقدِ نقّادُ
عن فتيةٍ فتكوا في الدين وانتهكوا
حماهُ، حملاً برأيٍ فيه إفسادُ

أشار بعدها الى الاضطراب والفساد ، واختلال الإدارة ، ونظام المصادرة، والتعدي على الناس ، والقضاء على الحريات ، ومحو العدل والمساواة . وانتقد بشدّة الوزراء وحاشية الخليفة المنشغلين ، بعبثهم وقصفهم ، الغارقين في غيّهم ومجونهم . وتهجّم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله وما أوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم. وفي آخر القصيدة يتمنّى الموت قبل أن يرى المسلمين وهم واقعون في كارثة يشيب من هولها الولدان ، فقال:

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٤٦.
(٢) انظر مقالنا المنشور في العددين الثالث والرابع من مجلة الإخاء لسنة ١٩٧٦ بعنوان : مجد الدين النشابي .
(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ .

أيـنَ المنـيّة منـّي كـي تُسـاورني
فللـمنّيـةِ إصـدارٌ وإيـرادُ

مـن قبـلِ واقـعـةٍ شـنعـاء مظـلـمـة
يشـيـب من هـولهـا طفـلٌ واكبادُ

لقد كانت القصائد الشعرية المحذّرة المنذرة صيحة في واد ونفخة في رماد، ووقعت الديار الإسلامية بعد عزّها ومنعتها في ذلّ الحكم التتري الباغي الذي شوّه معالم الحضارة والمدنية المعمورة منذ قرون عديدة .

شعر الحزن والاسى

إن الادب الباكي — إذا صحّ التعبير— هو أوضح موضوع تجلّت فيه آثار النكبة التي حلّت بالأمة الاسلامية بعد عزّها ومنعتها . لقد بكى الناس بدموع سجام وحقهم أن يبكوا وينشجوا فإن دماءَ أعزائهم مطلولة أمام أعينهم والدور مهدّمة على رؤوس أصحابها ، والمساجد والمدارس والمكتبات أصابها النهب والحرق . فاذا عبّر الشعراء عن أحداث هذه المصيبة ، كان تعبيرهم صادقا وأمينا ، نابعاً من قلوب مكلومة ونفوس مرزوءة . فهذا شاعر من الكوفة اسمه شمس الدين محمود الكوفي (ت ٦٧٥هـ)، ويسمّيه محمد رضا الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي « شاعر مأساة بغداد » (١) ، يبكي بغداد بعد أن فارقها على أمل العودة اليها ، واذا بصاعقة التتر تضربها وتحيلها الى خرائب يباب ، فيأتيها ، ويرثيها بقصيدة تفصح عن صدق معاناته وألمه يذكر في مطلعها صحبة وأصدقاءه الذين ودّعهم إلى غير رجعة ، ويتمنّى الموت بعدهم ، يقول (٢) :

إن لم تقـرّحْ أدمـعـي أجـفـانـي
من بعد بعدكُم فـمـا أجـفـانـي

---

(١) ابن الفوطي للشبيبي ص ١٤٦ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٤ .

إنسانُ عيني مذ تناءَت دارُكم
ما راقه نظرٌ إلى إنسانِ
ياليتني قد متُ قبل فراقكم
ولساعةِ التوديع لا أحياني
مالي وللأيامِ شتتَ صرفُها
حالي ، وخلاّني بلا خِلانِ

ويتعجّب الشاعر بعد تَطوافه ببغداد — من تبدل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، وما حلَّ بها بعدما جالت فيها معاول الهدم ، وألسنة النيران .

ما للمنازلِ أصبحت لا أهلُها
أهلي ، ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم
غيرُ البِلى والهدْمِ والنيرانِ

ويقف مذهولاً أمام الدار الخربة — وهي ليست وقفة الشعراء على أطلال محبوباتهم الظاعنات — ويسألها عما دهاها وأصابها ، وكيف تحوّلت الى هذه الحالة المؤلمة بعد عزّ ورخاء ، وقوّة ومنعة :

ولقد قصدتُ الدارَ بعد رحيلكم
ووقفتُ فيها وقفة الحيرانِ
وسألتها ، لكن بغير تكلّمٍ
فتكلّمتْ ، لكنْ بغيرِ لسانِ
ناديتُها : يادار ما صنعَ الألى
كانوا هم الأوطارَ في الأوطانِ
أين الذين عهدتهم ، ولعزّهم
ذلاً تخرُّ معاقد التيجانِ
كانوا نجومَ مَن اهتدى فعليهمُ
يبكي الهدى ، وشعائر الإيمانِ

فردّت الدار على سؤاله بجواب لطيف ، بأن أهوال الحوادث أفنتهم كما أفنت دولة كسرى العظيمة :

قالت غَدَوا لما تبدّد شملهم
وتبدّلوا من عزّهم بهوانِ
أفنتهمُ غيرُ الحوادثِ مثلما
أفنيتُ قديماً صاحبَ الإيوان

لم يأت الشاعر في قصيدته على وصف المدينة المنكوبة بكلّ تفصيلاتها وأبعادها بل انشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه ، وألمه الذي أصابه بعد خرابها ، ولم يستطع الشاعر أن يتخلّص — وهو في موقف الحزن والأسى — من التزيين اللفظي والمعنوي ، وبخاصة من الجناس والطباق ورد الصدر على العجز ...

ولشمس الدين محمود النكوفي قصائد أخرى في بكاء الأهل ، وندب الأحباب ، بعد هجوم هولاكو على بغداد ، وتمزيق صورتها المشرقة ، وتشويه أصالتها العريقة (١)

منها هذه القصيدة التي سلك فيها مسلك المتيّمين الذين أفناهم فراق الأحباب وقرّح جفونهم كثرة البكاء ، مطلعها :

عندي لأجلِ فراقكم آلامُ
فإلامَ أعذلُ فيكمُ وألامُ
مَنْ كان مثلي للحبيبِ مفارقاً
لا تعذلوه فالنكلامُ كلامُ
نعم المساعدُ دمعيَ الجاري على
خديَّ إلاّ أنه نمّامُ

وبعدها يستوقف أصدقاءه وخلاّنه على الديار التي تغيرت معالمها ، وتبدّد عقد قاطنيها :

---

(١) الحوادث الجامعة ٣٣٤ ، فوات الوفيات ٢ : ٢٣٢.

قِـفْ فـي ديـارِ الظـاعـنـيـن ونـادها
(يادارُ مـا صـنـعـتْ بـكِ الأيام) (١)

ويتساءل في قصيدته – على عادة من وقف على الأطلال – عن الراحلين الذين خلّفوه يتجرّع لوعة الأسى ، ومرارة الحرمان ، وعذاب الوحدة ويقسم بالبقاء على عهد الهوى والمحبّة مهما كلّفه ذلك :

وحـيـاتـكـم إنـي عـلـى عـهـد الـهوى
بـاقٍ ولـم يـخـفـرْ لـديّ ذِمامُ
فـدمي حـلالٌ إنْ أردتُ سـواكـمُ
والـعـيـشُ بـعـدكم عـليّ حـرام

ويسترسل على هذه الشاكلة الى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون أن يوضح لنا ما دهى المدينة المنكوبة من خراب ودمار ، وقتل وتشريد ، وأسر واغتصاب ، ونهب وحرق . اليك ما يقوله في خاتمة القصيدة :

يـالـيـت شـعـري كـيـف حالُ أحـبـتي
وبأي أرض خـيّـمـوا وأقـامـوا ؟
مـا لـي أنـيـس غـيـر بـيـت قـالـه
صـبٌّ رَمَـتْـه مـن الـفـراق سهامَ
(والله مـا اخـتـرتُ الـفـراقَ وإنـمـا
حـكـمـتْ عـلـيَّ بـذلـكَ الأيامُ)

إن بغداد جديرة بالبكاء لأنها الأُم الرؤوم الروحية للعالم الإسلامي ، فكانت النكبة التي حلّت بها عظيمة ، والفاجعة التي داهمتها كبيرة وقد قدّر لشاعر آخر اسمه تقي الدين اسماعيل بن ابي اليسر التنوخي مستند الشام(ت٦٧٢هـ) أن يكون في عداد من شهدوا النكبة وعانوا من أهوالها ، فبكاها بقصيدة طويلة ، مطلعها : (٢)

(١) لابي نواس وعجزه : ضامتك والأيام ليس تضام .
(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥١ شذرات الذهب ٥ : ٢٧٢.

لسائل الدمعِ عن بغداد إخبارُ
فما وقوفكَ والأحبابُ قد ساروا؟

يتخيل الشاعر في قصيدته قادماً الى بغداد لمشاهدتها بعد الغياب ولزيارة الأحباب ، فيعترضه ويستوقفه ليسأله عن قصده ووجهته . ولم يصرّح بسؤال الزائر وماهيته ، بل ابتدأ مباشرة بردّ الجواب ، وقال له : إن هذا الدمع الذي يجري بغزارة ينبئك بما دهاها ، ويعلمك ما أصابها ، ولكن الزائر يبقى مبهوتاً من النبأ لايبرح مكانه ،فيعود الشاعر ويسأله : لم أنت واقف ياهذا ؟ ويلتفت الى القافلة فيراها قد جمدت مكانها ، منذهلة من الخبر المرعب ، فيقول لهم : عودوا من حيث أتيتم ، فلا فائدة من مسيركم ، فأن الحمى الذي تبغون زيارته قد أقفر واندرس ، وعز الخلافة الشامخ ذلّ واتضع :

يا زائرين الى الزوراءِ لا تَفِدوا
فما بذاك الحِمى والدارِ ديّارُ
تاج الخلافةِ والربع الذي شَرفَتْ
به المعالم قد عَفّاه إقفارُ

وبعد هذا البدء الباكي يترك الشاعر القافلة ويعود الى نفسه المكلومة ويحدّثها حديثاً ذا شجى ، فيناجي قلبه الملتهب أسىً على ما وافى ربآع بغداد من إعصار أقلع كل شيء ناضر بهيج . وراح يتأسّف على كنوزها التي أصبحت نهباً رخيصاً بيد طائفة كافرة لارحمة في قلبها ولا عطف ، ويذكر سيوف التتر الباغية التي تسلطّت على رقاب الآمنين ، وتلاعبت برؤوس الأبرياء الآمنين :

يا نارَ قلبيَ من نارٍ لحربِ وغى
شبّتْ عليه ، واوفى الربعَ إعصار
وكم ذخائر أضحتْ ، وهي شائعة
من النّهاب ، وقد حازتْها كُفّارُ

وكم حدودٍ أُقيمتْ من سيوفهمُ
على الرِّقادِ وحُطّتْ فيه أوزارُ

وحين يشاهد النساء الشريفات يسوقهنّ قوم دعّار إلى السفاح ، ويدفعوهن إلى الموت وهنّ في أزرى حالة ، يرفع يده الى السماء راجياً من الله تعالى أن يسلّط عليهم عذابه ونقمته وأن لايسلط عليهم عذاب العار والمذلّة .

ناديتُ والسَّبْيُ مهتوكٌ يجُرُّهمُ
إلى السِّفاحِ من الأعداء دُعّارُ
وهم يُساقون للموت الذي شَهدوا
النارُ يارَبِّ نصلاها ولا العارُ

وبعدها ينادي الرجال الشرفاء وأهل النخوة والكرامة أن يسمعوا أحاديث هذه الفاجعة الكبيرة ، ويطلب منهم أن ينعوا على بني العباس . فلا بزغ على الدنيا بعدهم نور . ويعود الشاعر إلى نفسه فيراها بائسة حزينة لاتتسلى إلا بذكرهم . فهو لايتوقع أن تعود لبغداد مكانتها وكرامتها بعد وقوع ماينعيه بالقيامة الكبرى، وموت آل الرسول ورجال العلم والدين. ويتمنّى الموت ، ولكن القدر يأبى عليه إلاّ أنْ يعيش بعدهم ذليلاً يتجرّع مرارة العذاب وأسى التغرّب :

يا للرِّجالِ لأحداثٍ تحدّثنا
بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارٌ
من بعد أسرِ بني العباسِ كلّهم
فلا أنارَ لوجه الصُّبحِ إسفارُ
ما راقَ لي قطُّ شيءٌ بعد بينهم
إلاّ أحاديثُ أرويها وآثارُ
لم يبقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا
شوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا

إن القيامةَ في بغدادَ قد وُجِدَتْ
وحدّها حين للإقبال إدبارُ
آل النبيّ وأهل العلمِ قد سُبِيُوا
فَمَنْ ترى بعدهم تحويه أمصارُ(١)
ما كنتُ آملُ أن أبقى وقد ذهبوا
لكنْ أبىَ دون ما أختار أقدارُ

لقد القت هذه القصيدة الضوء على واقع بغداد بعدما داهمها التتر ، وما فعلوا فيها من الأعمال التي تأباها الإنسانية . تجلّى فيها عمق الألم الذي عاناه الشاعر ، والعاطفة المتأججة تجاه بني قومه المنكوبين ، والحسرة على فقدان الكثيرين منهم .

وخلد الشعر الفارسي حوادث التتر المروعة ، وماجرته على بلاد المسلمين من تخريب واحراق ، فهذا شاعر يدعى « أنوري» يبكي خراسان بقصيدة سماها دموع خراسان ، بعد غارة التتر ، وتدميرهم إياها وقتلهم أهلها واشعال النار فيها. يقول وليام كرباتريك الذي ترجم القصيدة إلى اللغة الانكليزية وأشاعها في أوربا : « إن هذه القصيدة من أجمل القصائد في اللغة الفارسية ، فالعواطف الممثلة بها طبيعية ، وهي على الغالب من أجمل العواطف وأنبلها ، وكذلك الصور التي اشتملت عليها واضحة ظاهرة للعيان ، والشاعر ثائر في قوله ، ولكنه جميل التعبير ، منمّق العبارة ، عفيف الألفاظ ، ونظمه ليس سلساً في كل المواضع ، ولكنه على العموم متناسب مع موضوع القصيدة ، وكذلك البحر الذي نظم فيه الشاعر يعتبر من أبطأ البحور من حيث موسيقاه ، ومن أكثرها مهابة واتزانا » ، (٢) وقد التزم في قصيدته عمود الشعر العربي ، واليك ترجمة حرفية لبعض أبياتها .

---

(١) سبيوا : هكذا ورد ، وهو خطأ ، والصواب سبوا وان كان لا يتزن به البيت .
(٢) تأريخ الأدب في ايران ص ٤٨٦ .

— اذا مررت ياريحَ السحر على مدينة سمرقند
فاحملي رسالةَ أهل خراسان إلى حضرة السلطان
وهي رسالةٌ تبدو في سطورها تأوهات الأعزاء
وتحتوي في ثناياها على دماء القتلى من الشهداء
— وقد جفت صفحاتها بفعل التأوهات الحارة التي تخرجها صدور المظلومين
ولكن عنوانها مازال نديّاً مبللاً بفعل الدموع الجارية من أعين المحرومين
وقد احترقَ بها سمعي عندما أخذَ يصغي إلى أخبارها
ودمي بها إنسان عيني عندما نظر إلى مضمونها وآثارها (١)

واذا كان أنوري قد نظم قصيدته باللغة الفارسية ، فإن سعدي الشيرازي (ت ٦٩١ هـ) نظم قصيدة رائعة في بضعة وتسعين بيتاً باللغة العربية ، رثى بها الخليفة المستعصم بالله، وبكى على بغداد حاضرة العالم الإسلامي آنذاك، أولها(٢) :

حبستُ بجفنَيَّ المدامعَ لا تجري
فلما طغى الماءُ استطالَ على السكرِ
نسيمُ صبا بغداد بعد خرابها
تمنيتُ لو كانت تمرُّ على قبري
لأنَّ هلاكَ النفسِ عند أولى النهى
أحبُّ له من عيشِ منقبضِ الصدرِ

إنه سلك طريقة مجد الدين النشابي وشمس الدين محمود الكوفي اللذين تمنيا الموت بعد خراب بغداد ، فقد تمنّى سعدي الشيرازي الموت بعد ذهاب دولة بني العباس ، وودَّ لو مرت على قبره أنسام بغداد الحزينة .

---

(١) تنظر القصيدة وترجمتها في كتاب تاريخ الأدب في ايران ص ٤٩١ وما بعدها .

(٢) متنبي وسعدي ص ٩٢ ، وينظر مقال أحمد حامد الصراف في مجلة اليقين ، العدد الخامس لسنة ١٩٢٤ بعنوان سعدي الشيرازي ، ومقال الدكتور نورى حمودى القيسي في مجلة كلية الدراسات الاسلامية ، العدد الثاني لسنة ١٩٦٨ بعنوان رثاء بغداد .

وقد صوّر في قصيدته هذه الحادثة الموجعة ، والكارثة المفجعة ، وحالة الناس وهم سكارى من هول الهجمة الشرسة التي فوجئوا بها بعد أن كانوا في بيوتهم آمنين :

أُديرتْ كؤوسُ الموتِ حتى كأنّه
رؤوسُ الأسارى ترجحن من السكرِ

ويعيد ما تمناه في مفتتح القصيدة ، بعد أن رأى المنظر المزري الذي أصيب به العلماء والأدباء بأيدي أراذل الناس وسفهائهم .

نوائبُ دهرٍ ليتني متُّ قبلها
ولم أرَ عدوان السفيهِ على الحبرِ

وشبه نفسه حين مرّ بديار المنكوبين ، وقد أجهش بالبكاء ، بالخنساء المرزوءة بأخيها صخر ، وطلب من ذلك الشخص الذي أراد أن يخفّف من مصابه الأليم أن يتركه وشأنه ، لأن قلبه لم يعد يحتمل الصبر والسلوان :

مررتُ بصمِّ الراسياتِ أجوبُها
كخنساء من فرط البكاءِ على صخرِ
يا ناصحي بالصبرِ دعني وزفرتي
أموضع صبر والكبودُ على الجمرِ

وهو يرى أن الإسلام ما دام قد عاد غريباً كما بدأ غريباً ، فلا جرى نهر دجلة بمائه الرائق على أرض العراق ، ولا نبت حوله عشب ، ولا أورقُ شجر :

وفي الخبرِ المروي دين محمد
يعودُ غريباً مثل مبتدأ الأمرِ(١)
فلا انحدرتْ بعدَ الخلائقِ دجلة
وحافاتُها لا أعشبتْ ورقُ الخضرِ

(١) اقتباس من الحديث الشريف : « ان الاسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء» . صحيح مسلم ١ : ٢٩ صحح الترمذي ١٠ : ٩٦ .

ولم يقف بكاء الشعراء عند حدود العراق ، بل كان لتخريب المدن الشامية اكبر الأثر في نفوسهم ، فهذا ملكها الناصر يوسف — وكان شاعراً — يقع أسيراً بيد التتر ، وحينما يمرون به على حلب ، وهي خاوية على عروشها، وقد تهدّمت وألسنة النيران تعمل فيها ، :قال (١)

يعزُّ علينا أن نرى ربعكم يبلى
وكانت به آياتُ حسنكم تُتلى
أدورُ بعيني نحوكم في دياركم
وأكثر فيها النوحَ كالفاقدِ الثكلى
أأحبابنا واللهِ ما قلتُ بعدكم
لنائبة الأيامِ رفقاً ولا مهلا

إنه يتأسّف على ما حلّ في الربوع التي كان يحكمها ويعيش في وارف ظلالها ونعيم خيراتها ، وهو — كما تذكر المراجع — قد تخاذل في لقاء التتر لذا نراه يقف موقف المنهار معنوياً ، اليائس من عودة العز الذي اندك ، فيبكي كالثكلى الفاقدة لعزيزها المرزوءة بفلذة كبدها . ولم ينجه البكاء والنحيب ، فإنّ هولاكو قتله سنة ٦٥٨ ، يقول ابن شاكر الكتبي :

« إنه قتله عقيب واقعة عين جالوت، وقيل خصّ بعذاب دون أصحابه، وقيل جعل هدفاً للسهام ، وقيل جمع له نخلتان ، وربط بينهما ، وافترقتا ، فذهبت كل واحدة بشق منه (٢)» . وكان لموته رنّة حزن في نفوس الشعراء وجادت قرائحهم له بمراث كثيرة (٣). ولم يكن الملك الناصر يوسف الضحية الوحيدة في هذه الأحداث ، فأن الملك الكامل محمد بن غازي صاحب ميّافارقين كان الصريع الآخر ، فأنه قاوم هولاكو بعناد ، وصبر على حصاره أكثر من سنتين «حتى ضعف من عنده عن القتال ، فاستولوا عليها ، وقتلوه ، وطافوا برأسه في البلاد ...وعُلّق رأسه في شبكة بسور باب الفرادس الى

(١) ذيل مرآه الزمان ١ : ٤٦٨.
(٢) فوات الوفيات ٤ : ٣٦٤.
(٣) انظر فوات الوفيات ٤ : ٣٦٥ — ٣٦٦ .

أن عادت دمشق الى المسلمين ، فدفن بمشهد الحسين – رضى الله عنه –»(١)
وفيه يقول شهاب الدين بن أبي شامة (ت٦٩٤هـ) :

ابنُ غازٍ غزا وجاهدَ قوماً
أثخنوا في العراقِ والمشرقينِ
ظاهراً غالباً ومات شهيداً
بعدَ صبرٍ عليهم عامينِ
لم يشنْهُ أنْ طيفَ بالرأسِ منه
فلهُ أسوةٌ برأسِ الحسينِ
ثم واروا في مشهدِ الرأسِ ذاك الـ
ـرأس فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعـ
ـثِ رفيق الحسين في الجنتينِ(٢)

إن هذا الملك صابر وجالد قوماً بغوا وفتكوا في كلّ البلاد التي وطئتها سنابك خيولهم ، ولم يعبه عائب عندما سقط صريعاً بين أيديهم فأن له أشباهاً ونظائرَ عبر التاريخ الطويل ، كتبوا في سجل الشهداء والصديقين .

ويبدو أن شهاب الدين بن أبي شامة المقدسي كان مولعاً بربط الأحداث بالتاريخ ، يستلهم منها العبر والعظات ، فله قصيدة أخرى يذكر فيها حمم النار التي قذفها بركان ثار بالقرب من المدينة ، وحريق مسجد الرسول وسقوط بغداد ، ومقتل الخليفة المستعصم بالله ، ويدعو في ختامها أن يصون الديار الباقية من الكوارث والنكبات :

وانقضتْ دولةُ الخلافةِ منها
صارَ مستعصم بغيرِ اعتصام

---

(١) تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥ .
(٢) ذيل الروضتين ص ٢٠٥ ، تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥ ، ذيل مرآة الزمان ١ : ٣٥٩ .

ربِّ سلِّمْ وصُنْ وعافِ بقايا ال
ـمدن ياذا الجلالِ والإكرام
فحناناً على الحجاز ومصر
وسلاماً على بلادِ الشآم (١)

لم تكن دمشق وحلب وميّافارقين المدن الوحيدة التي نكبت في هذه الأحداث، وسقاها التتر بنفس الكأس التي شربت بها بغداد، فأن معرّة النعمان أصيبت بابتلاء أدهى وانتقام أشد، فقد هدّمت قلعتها بمعاول البغي والبطش أمام أعين أهلها، ولما رأى أحد الشعراء رجال التتر على القلعة يسخّرون العوام في تخريب سورها قال قصيدة منها :

رفقاً عليها قلعةٌ منعةٌ
يهدمُها مَنْ هو مِن حزبها
فغايةُ المفرطِ في سلمها
كغايةِ المفرطِ في حربها
تحثّنا في هدمها أعجمٌ
ونحن مكروبون من كربها
تبخلُ أيدينا بأرواحنا
وتشتكي منها إلى ربِّها
فهذه الأرواحُ من جوِّها
وهذ الأجسامُ من تربها
لما رأوها أسرفتْ في العلا
كانَ علاها منتهى ذنبها (٢)

---

١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١.

(٢) تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥.

تعطينا الأبيات السابقة صورة لحالة أهل المعرّة في تلك الآونة،وهم ينظرون إلى قلعتهم الحبيبة إلى نفوسهم، وقد تناولتها أيدي التخريب والهدم، يتجرعون مرارة الألم وهم صاغرون.

وحينما ذهبت المحنة، وهدأت الفتنة، عاد الكثيرون إلى ديارهم فوجدوا معالمها قد تغيرت، وزينتها قد تشوهت، فبكوها أشد البكاء. منهم كمال الدين بن العديم المؤرخ المشهور (ت ٦٦٠هـ) الذي فرّ من بطش التتر إلى مصر، فجاء إلى الشام، ومنها إلى حلب، فرآها كئيبة حزينة ترثي حالها، وتحكي قصتها وما جرى لها لكلّ قادم اليها، فنظم قصيدة عدتها خمسة وسبعون بيتاً مطلعها :

هـو الـدهرُ : ما تبنيهِ كـفاكَ يهـدمُ
وإنْ رمتَ إنصافاً لديـه فـتظلمُ
وملكُ بني الـعـبـاسِ زالَ ولـم يدعْ
لهم أثراً من بعدهـم وهـمُ هـمُ
وأعتابُهم أضحتْ تداسُ، وعهدُهـا
تباسُ بأفواهِ الملوكِ وتـلـثـم
وعن حلبٍ مـا شـئتَ قلْ من عجائبٍ
أحلّ بها يا صاحِ إن كنتَ تعلـمُ
فيالكَ مـن يـومٍ شـديـدٍ لـغـامـه
وقد أصبحتْ فيـه المساجدُ تهـدمُ
ولـكـنـما لـلـهِ فـي ذا مـشيئـة
فيفعل فينا مـا يـشـاءُ ويـحكـمُ (١)

ألقى الشاعر اللوم على الدهر وجوره، والأيام وصروفها، ولم يلقه على نفسه وأمثاله الفارين، ولا على ملوك الشام المتفرقين، والمتخاصمين فيما بينهم. ويرى الداهية الكبيرة التي أصابت المسلمين من مشيئة الله وحكمه،

(١) اعلام النبلاء ٢ : ٣١٣.

ولم يعلم بأن الله قد أوصى بالجهاد والمصابرة، وعدم الركون إلى القعود والسكينة ، فقال : « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »(١).

وبقيت آثار النكبة التي ابتلي بها المسلمون عامة والعرب خاصة ماثلة للعيان الى زمن طويل . وقد استجلبت أنظار فريق من الشعراء المتأخرين ، فنظموا قصائد حزينة . ولعل أكثرهم تأثراً بذلك هو علاء الدين علي الأوتاري (ت٧٢٤) الذي نظم قصيدة طويلة سنة تسع وتسعين وستمائة حينما شاهد الخراب والدمار الذي أحدثه هجوم التتر على دمشق ، أولها : (٢)

لكَ علمٌ بما جرى ياسُهادي
من جفوني على افتقاد رقادي
لم أجدْ عند شدتي مؤنساً لي
غير سُهْدي ملازماً لوادي
وحبيبُ العين ، الرقادُ جفاها
مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ
أحسنَ اللهُ يا دمشقُ عزاكِ
في مغانيك يا عمادَ البلادِ

وهي قصيدة موجعة تتقطر دماً على ما دهى الناس الآمنين في دمشق من قتل ونهب وهتك ، وما أصاب الدور والقصور من هدم واحراق :

طرقتهم حوادثُ الدهر بالقتـ
ـلِ ونهبِ الأموالِ والأولادِ
وبنات مُحَجّباتٍ عن الشمـ
ـس تناءت بهنَّ أيدي الأعادي

(١) سورة التوبة ، الآية ٤١ .
(٢) نهاية الأدب ٥ : ٢٢٧ ، وينظر تاريخ الشعر العربي للكفراوى ٣ : ١٥٤.

وقصور مشيّدات تقضّتْ
في ذراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوةُ والذّكـ
ـرُ وعالي الحديث بالإسنادِ
حرّقوها وخرّبوها وبادتْ
بقضاء الإلهِ ربِّ العبادِ

ويوضح بعدها الأمراض الإجتماعية ، والأوبئة الاقتصادية ، التي عمت دمشق ، يضاف اليها الخوف والرعب اللذان سيطرا على النفوس ، وهيمنا على القلوب :

فالغلا والجلا مع الجُوعِ والعُر
ي ونهبِ الأقواتِ والأزوادِ
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو
فُ مع السادة العُراة المكادي

أية فاجعة هذه ؟ إنها أصابت الحرث والنسل ، ويتّمت الأطفال ، وسبت الفتيات ، وأثكلت الأمهات ، وخرّبت القصور ، وحرّمت تلاوة الذكر في الدور .

وأية حالة هذه ؟ الغلاء عم البلاد ، والجلاء دهم العباد ، وابتلي الناس بالنهب والسلب وحبس الأنفاس .

إنها حالة يرثى لها ، فلا يستطيع الناظر آنذاك أن يخفي حزنه ويحبس دموعه ويكظم غيظه عن التتر ، فها هو ذا علي بن عبدالله البهائي (ت٨١٥هـ) يمر على دمشق ، ويقف على الخرائب التي سببها الغزو التتري ، فينظم قصيدة نونية أولها :

أجريت جمرَ الدمع من أجفاني
حزناً على الشعَراءِ والميدانِ

ونجتزيء من القصيدة الأبيات الآتية لنرى مدى انفعال الشاعر من الكارثة :

لهفي عـلى كـتـب الـعلـوم ودرسها
صارتْ معـانـيهـا بغـير بـيـان
أعروسنا لك أسـوةٌ بـحـمـاتـنا
في ذا المصاب فأنـتـما أختـان
غابت بـدورُ الحـسـن عـن هالاتـهـا
فاستبدلتْ مـن عـزّهـا بهـوانِ
ناحـت نـواعـيرُ الـريـاضِ لفقدهـم
فـكـأنـهـا الأفـلاك في الـدورانِ (١)

إنه يبكي على دمشق التي فقدت رواءها وحسنها، واضمحلت من أروقة مدارسها العلوم وكتبها، ويشبه حالها بحماة التي ضربت أيضاً بسهام البغي والعدوان. ويتأسف على البدور الحسان اللواتي تحولن من العزّ والكرامة إلى المذلّة والهوان، فناحت لهنّ النواعير في الرياض البهية التي تحيط المدينة المنكوبة. والملاحظ أن القصيدة – وإن لم ترق في مستواها الفني إلى قصائد الشعراء المجيدين – تعطينا صورة صادقة عن الحزن والأسى الذي اعتمل في صدر هذا الشاعر، فنفثها قصيدة طويلة تجاوزت ستين بيتاً.

إن آثار هذا الغزو بقيت عالقة بالأذهان، تثير بين الحين والآخر الأشجان والأحزان، وعلى مر العصور والأزمان. تهز الكارثة الشعراء كلما سمعوا بها، أو رأوا معالمها، أو قرأوا حوادثها المثيرة ، ووقائعها المؤلمة. (٢)

شعر البشرى والفرح وتمجيد البطولة :

وإلى جانب الأدب الباكي الحزين نجد شعراً يحمل بين جوانبه البشر والفرح، وخاصة بعد معركة عين جالوت (٣) التي انتصر فيها الجيش

(١) مطالع البدور ٢: ٣٠٠ وينظر الوطن في الأدب العربي ص ٧٨.
(٢) تنظر القصيدة التي نظمها الشاعر معروف الرصافي بعنوان (هولاكو والمستعصم) . الديوان ٣٤٨ – ٣٥٣ .
(٣) كانت هزيمة التتر على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ (مختصر أبي الفداء ٣: ٢١٤)

المصري بقيادة المظفر قُطز ، وبمؤازرة جيش حمص بقيادة الملك المنصور محمد. وقد أخذ الناس العجب أن تكون كسرة التتر على يد شخص من جنسهم وبني قومهم، فقال شهاب الدين ابن أبي شامة المقدسي :

غلبَ التتارُ على البلادِ فجاءَهم
مِن مصرَ تركيٌّ يجودُ بنفسهِ
بالشام أهلكهم وبدَّدَ شملهم
ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسهِ (١)

ولقد خاف الناس على دينهم الحنيف ، كما خافوا على أعراضهم وأموالهم ، لذلك نرى احد الشعراء ينوه بذكر المظفر قُطز الذي دحر بقوتهوعزيمته الكفر في بلاد الشام، فهم معتزون به، ذاكرون جميل أفعاله وواسع أفضاله، وقد وجب عليهم شكره كواجب الفرائض التي سنها الله على عباده (٢) :

هلكَ الكفر في الشآم جميعاً
واستجدَ الإسلام بعد دحوضه
بالمليكِ المظفرِ الملكِ الأر
وعِ سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزمٍ وحزمٍ
فاعتززنا بسمرهِ وبيضه
أوجبَ الله شكرَ ذاكَ علينا
دائماً مثلَ واجباتِ فروضه

وكان للملك المنصور محمد نصيب من مدح الشعراء، وتهنئته، وتمجيد بطولته ، وابراز مهارته وجدارته في ردّ الخصم اللّدود الذي أراد أن يذلّ الناس في الشام، وينعم بخيراتها، ويمرح في حقولها ومزارعها. فها هو ذا الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت ٦٦٢) ينظم قصيدة طويلة في مدح هذا الملك

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ .
(٢) المختصر في أخبار البشر ٣ : ٢٠٦.

وتهنئته بالظفر مع الملك المظفر قُطز على التتر في معركة عين جالوت، مطلعها(١) :

لكَ في الندى، ورَدَى ذوي الإشراكِ
شيمٌ تفوق بها على الأملاكِ

ويسمى الشاعر اليوم الذي انتصر فيه الجيش الشامي مع الجيش المصري على العدو الباغي بـ « يوم العروبة » للدلالة على أثر التضامن العربي في ردّ عادية الخصم مهما أوتي من قوة وجبروت :

ووقفتَ في يومِ العروبةِ موقفاً
أوسعتَ فيه الفتلكَ بالفُتّاكِ

ويتناول بعدها وصف الموقف البطولي ، والحماسة الفائقة التي تحلّى بها الملك المنصور ، والروح المعنوية القوية التي اتصف بها ، والقدرة العظيمة في تقييد التتر ، وايقاعهم في شركٍ لافرار منه :

قيّدتَ أبطالَ التتارِ بصولةٍ
تركتهمُ كالصيدِ في الأشراكِ
وأطرتَ منهم هامَ كلِّ مدجّجٍ
للهِ كلُّ مُوحّدٍ سفّاك !

ويذكر الشاعر الإطمئنان النفسي الذي وفّره الملك المنصور للناس أجمعين ، وبخاصة النساء اللواتي كن يخشين من جور العدو وغدره ، وكذلك ينوه بالجو الأمين الذي هيأه للنساك والعباد بعد هزيمة المعاندين الأفّاكين من ديار الشام :

فلقد أنمتَ المُحصَناتِ أوامناً
ولقد أقمتَ شعائرَ النّساكِ
سلّمتَ مهجةَ كلِّ برٍّ مُسلمٍ
وهزَمْتَ كلَّ معاندٍ أفّاكِ

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري ٥٥٦.

وكان للظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ) بعد المظفر قطز اليد الطولى في حرب التتر واخراجهم من ديار الشام ، فإنه تعقبهم ، وعبر نهر الفرات على رأس جيش كبير ، ولم يفلت من قبضته الا القليل ، وأسر منهم زهاء ستين مقاتلا وكان لهذا النصر رنة فرح في نفوس الشعراء ، أشادوا في قصائدهم التي نظموها في هذه المناسبة بهمة الظاهر بيبرس وجهوده المشكورة في حرب التتر ومقدرته الفائقة في ردهم عـلى اعقابهم خاسرين ، فممن مجده واثنى عليه شهاب‌الدين الدين محمود (ت ٧٢٥هـ) كاتب الإنشاء في قصيدة طويلة ، اولها : (١)

سر حيثُ شئت لك المهيمنُ جارُ واحكم فطوعُ مرادك الاقدارُ

ووصف صولة الجيش ، وقابليته القتالية ، ومقدرته النضالية في تعقب فلول جيوش التتر المنهزمة ، اختتمها بقوله :

فلأملأن الدهر فيكَ مدائحاً تبقَى بقيتَ وتذهب الأعصارُ

وتحدّث محيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) عن الحقد الذي كان يغلي في صدر العدو ، وشموخ أنفه ، وغروره بعدم وجود قوة تقف بوجهه وتصدّه عن بلوغ مراده ، وما حسب أن المسلمين يستطيعون عبور الفرات وكأنهم سدّ من حديد (٢) :

تجمعَ جيشُ الشركِ من كلِّ فرقةٍ وظَنُّوا بأنا لانطيقُ لهم غلبا
وجاءوا إلى شاطي الفراتِ ومادروا بأنَّ جيادَ الخيلِ تقطعُها وثبا
وجاءت جنودُ اللهِ في العددِ التي تميسُ لها الأبطال يومَ الوغى عجبا
فعمنا بسدٍّ من حديد سباحةً اليهم ، فما اسطاعَ العدوُّ له نَقْبا

وقد رافق الشاعر بدرالدين يوسف (ت ٦٨٠هـ) الجيش المصري ، وشاهد بنفسه عبور الفرات ، والمعركة التي دارت بين الطرفين ، فوصفها بقصيدة مطلعها : (٣)

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩.
(٢) فوات الوفيات ١ : ٢٣٨.
(٣) فوات الوفيات ١ : ٢٣٩.

لو عاينتْ عيناكَ يومَ نزالنا والخيلُ تطفحُ في الفجاجِ الأكدرِ

ويذكر بعد هذا الاستهلاك جيش الظاهر بيبرس ، وكيف عبر فرسانه تيار الماء المتدفق ، وكأنه قطعه متماسكة من الحديد الصلب ، يلتصق أبطاله بعضهم ببعض ، وبالغ ، فقال إن قوتهم قادرة ان توقف سيل الماء الجاري ، ويذكر أن جنود العدو حاولوا الفرار والإفلات ، ولكن السهام التي اطلقت عليهم قيدتهم وجعلت دماءهم تجري من كثرتها كالأنهار :

فتسابقوا هرباً ، ولكن ردهمْ دونَ الهزيمةِ رمحُ كلِّ غضنفرِ

وجرت دماؤهُم على وجهِ الثرى حتى جرتْ منها مجاري الأنهرِ

وذكر موفق الدين عبدالله بن عمر (ت ٦٧٧هـ) الشوق المضطرم في نفوس الجند إلى لقاء العدو الغادر وحبه في الانقضاض على الخصم اللدود الذي داس الديار الإسلامية وعاث فيها فساداً ، ولم يجد وسيلة يطفىء بها نيران غضبه غير اقتحام الماء (١) :

اقتحمَ الماءَ ليطفى بــه حرارةَ القلبِ من المغْــلِ (٢)

ويذكر التاريخ للظاهر بيبَرْس معركة حامية أخرى جـرت عند صحراء أبلُسْتَين (٣)، فإن جيش التتر جمع شمله ، واعدَّ عدته ، وقرَّر أن يضرب الجيش العربي ضربة قاصمة يستردُّ فيها اعتباره الذي فقده في معاركه السابقة ولكن الظاهر بيبرس لم يركن إلى نشوة النصر ، بل أخذ أهبته ، واستعد للقاء أيّ هجوم مباغت يأتيه من الخصم العنيد الذي لم يعلم أنه سيلقى مصرعه الأخير يقول ابن تغري بردي : « فأمر الملك الظاهر جماعةً من أصحابه الشجعان بإردافها ، ثم حمل هو بنفسه – رحمه الله – فلما رأته العساكر حملت نحوه برمتها حملة رجل واحد ، فترجّل التتار عن خيولهم ، وقاتلوا قتال الموت ، فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئا ، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره ، وهو

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٣٩ .

(٢) المغل : التتر .

(٣) مدينة مشهورة ببلاد الروم (معجم البلدان ١ : ٧٥) .

يكرُّ في القوم كالأسد الضارى ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويُشجّع أصحابه ويزيّن لهم الموت في سوح الجهاد إلى ان أنزل الله تعالى نصره عليه ، وانكسر التتار أقبح كسرة وقُتلوا وأسروا وفرَّ من نجا منهم فاعتصموا بالجبال «(١) ونظم الشعراء في هذه الوقعة عدة قصائد، منها قصيدة شهاب الدين محمود أولها: (٢)

كذا فلتكن في الله تمضي العزائمُ ... وإلاّ فلا تجفو الجفونُ الصوارمُ
عزائمُ حاذَتْها الرياحُ فأصبحتْ ... مخلّفةً تبكي عليها الغمائم
سرتْ مِن حمى مصر إلى الروم فاحتوت ... عليه وسُوراه الظُّبا واللهاذمُ
كتائبُ كالبحرِ الخضمِ جبادُها ... اذا ماتهادَى موجُه المتلاطمُ
مليكٌ به للدين في كل ساعةٍ ... بشائرُ للكفّارِ منها مآتمُ
غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم ... تبيد الليالي والعدا ، وهو دائم
فأهووا إلى لثمِ الأسنّةِ في الوغى ... كأنّهم العشّاق ، وهي المباسم
وصافحت البيضَ الصفاح رقابهم ... وعانقت السُّمرَ القدودُ النواعمُ
فكم حاكم منهم على الف دارعٍ ... غدا خاسراً والرمح في فيه حاكم
وكم ملكٍ منهم رأى وهو موثقٌ ... خزائنَ ما يحويهِ ، وهي غنائمُ

لقد أشادت القصيدة بمقدرة الظاهر بِيبَرْس العظيمة في مقارعة الخصم، وهمته الكبيرة ،وتفننه في إيقاع العدو في شباكه التي لامفر منها ،وأشارت إلى حزمه في صيانة الدين الذي أريد به سوءاً ،ووصفت كثافة جيشه، ومعنويته العالية في المجابهة والمجالدة ،وضرباته القاصمة التي ألهبت ظهور العدو. وقد وفق الشاعر في التصوير والتشبيه ،خاصة في صورة تساقط العدو على لثم الأسنة كالعشاق ،ومصافحة السيوف الرقاب ، ومعانقة الرماح للقدود النواعم؛ إذ أنها جسدت موقف الاستسلام السريع من غير مقاومة أو مناجزة .

ان جهود الظاهر بيبرس في حرب التتر وازاحتهم عن مواقع كثيرة في ديار الشام ،حركت قرائح عدد من الشعراء في تمجيد بطولاته ، وتسجيل خطواته

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨.
(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٧٠.

الموفقة منهم جمال‌الدين ابن الخشاب ،حيث يقول في قصيدة له (١) .

قصدَ الملوكُ حماكَ والخلفاء ... فافخر ، فإنَّ محلك الجوزاء
ملك تزينت الممالكُ باسمهِ ... وتجملت بمديحه الفصحاء
كم للفرنج وللتتارِ ببابهِ ... رسلٌ مناها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة ... وطريقهم لبلادهم عذراء
دامتْ له الدنيا ودامَ مخلداً ... ماقبلَ الاصباحُ والإمساء

إن شعر التهنئة ،واظهار الفرح بالنصر، وتمجيد البطولة في حرب التتر لانجده إلاّ على ألسنة شعراء الشام ومصر، وعلة ذلك — في رأيي — الانتصارات الباهرة التي حققها ملوك دمشق والقاهرة ،والأمل الكبير الذي بعثوه في قلوب الناس بعد دحر جيوش الغزاة وأبعادهم عن الأماكن التي سيطروا عليها لفترة وجيزة .وعدم اهتزاز الشعراء العراقيين بأحداث الشام ، وهزيمة التتر كانسببه النكبة الرهيبة التي وقعوا تحت كاهلها ،والبلية الكبرى التي أفقدت صوابهم وزعزت قلوبهم .

إن الشعر الذي نظم ضئيل إذا ماقيس بحجم الأحداث التي رافقت الزحف التتري ، فهل هذا يعني أن ساحة الأدب خلت من الشعراء الذين كنا نجدهم ، وبأعداد كبيرة في النائبات والكوارث ، أو أنهم كانوا موجودين ، ولكنهم بهتوا وعقل لسانهم من هول الصدمة ؟ الذي أراه هو عدم توفر الأجواء المناسبة التي تشجّع الشعراء على نظم قصائدهم والتوجّه بها إلى حكامهم ؛ بسبب انشغال هؤلاء الحكام بالحروب من جهة ، وبالمشكلات الداخلية من جهة أُخرى ، وعدم إقبالهم على سماع الشعر لضعف ذوقهم الأدبي كما نجد عند صلاح الدين الأيوبي وأمثاله ممن تذوقوا الشعر ، وشجعوا على قوله ، وأكرموا قائليه . يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الشعراء لم يكونوا من الذين يمتلكون الموهبة الأدبية العالية ، والقريحة المعطاء ، والاداة اللغوية للتوجه إلى فنون

---

(١) خطط المقريزى ٤ : ٥٩ .

الشعرجميعاً ، واذا ما أقحموا في موضوعات لاعهد لهم بها — كما رأينا — كانوا ضعفاء لايقوى نتاجهم على الوقوف أمام ما أنتجته قرائح الشعراء القدماء. تأمل قول أحدهم في الظاهر بيبرس : (١)

كسرتَ الطغاة ، جبرتَ العفاة
قطعتَ الفرات ، وصلتَ الخلافه

هل تجد غير عبارات تتابعت لتملأ فراغ البيت ؟ وهل تجد غير المقابلة المصطنعة التي أثقلت البيت قبحاً ؟ وتأمل قول الآخر : (٢)

أوجبَ الله شكرَ ذاكَ علينا
دائماً مثلَ واجباتِ فروضه

في جو المديح يحشو الشاعر مصطلحات أهل الفقه ، فلا يرى أمامه إلاّ الواجبات والفروض في دعوة الناس لتقديم شكرهم للممدوح .

وانظر إلى قول الشيخ شرف الدين الأنصاري الذي قال عنه الصفدي : (٣) « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين ، وما رأيت له شيئاً إلاّ وعلقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفصيح ، والمعنى البليغ » :

رعتَ العدا فضمنتَ ثلَّ عروشها
ولقيتها ، فأخذتَ فلَّ جيوشِها
للهِ درُّ كتيبةٍ ملمومةٍ
تبغيكَ حينَ حملتَ من جاليشها (٤)

---

(١) تاريخ ابن أياس ١ : ١٣.
(٢) المختصر في أخبار البشر ٣ : ٢٠٦.
(٣) فوات الوفيات ٢ : ٣٥٥.
(٤) جاليش : لم تورد معاجم اللغة هذه الكلمة ، وقد عرفت في هذا العصر ، وهي الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، وكان المماليك يطلقونها على الطليعة من الجيش ، وقد استعملها في ذات المعنى هذا (انظر صبح الأعشى ٤ : ٨ والنجوم الزاهرة ٧ : ١٠١) .

جنّبتها نغمَ القيانِ مُعوِّضاً
بتردُّدِ الأصواتِ من شاويشها
نازلتَ أملاكَ التتارِ فأنزلَتْ
عن فحلها قسراً أوعن إكديشها
دارتْ رَحَى الحربِ الزبونِ عليهمُ
فغدتْ رؤوسهمُ حطامَ جريشها (١)

القصيدة طويلة ، كلها على هذا النسق ،فهل الكلمات: جاليش، وشاويش ، وإكديش، وجريش شاعرية ؟ وهل هي ألفاظ بليغة كما ذكر الصفدي ؟ لاأعتقد ذلك ، فإن رسالة الأدب ترفض أن تضمّ هذه الكلمات إلى عالمها ، وتأبى أن تقرنه إلى شعرها الحماسي الأصيل .

ان الشواهد الشعرية على الركة والضعف كثيرة ،ويكفينا أن نورد هذا البيت (٢):

كم قد فلقنا صخرةً من صخرةٍ ولكم ملأنا محجراً من محجرِ

إن اتساع الخلف بين لغة الحديث ولغة النظم بتأثير الأزدواج اللغوي ، وضحالة ثقافة الشاعر ، وعدم امتلاكه الأداة اللغوية امتلاكاً كاملاً وجنوحه إلى المنطق العقلي بدلا من الفيض العاطفي ، كل ذلك أبعد الشعر عن خصائصه المعروفة ،وأدى إلى انحرافه عن وضعه الطبيعي،وعن وظيفته، أو مهمته الأصلية . ولعل هذا ايضاً يعود الى ضعف الحياة كلها الذي أدى الى ضعف الشعور، وتدهور القيم ، وانحطاط المفاهيم وانتهت هذه الصور من الضعف إلى عجز في التعبير عن التجارب عجزاً أخل بالقصيدة ، وأبعدها عن حرارة العواطف قوة المشاعر وشيء آخر لابد من ذكره أن أغلب الشعراء في هذا العصر كانوا من الكتاب والنحاة واللغويين ممن ليس لهم عدة في الشعر غير الاقتدار على إقامة الوزن وعرض القضايا العقلية فيه (٣)

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى ص ٢٧٠ .
(٢) فوات الوفيات ١ : ٢٣٩ .
(٣) ينظر كتاب ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في ص ٤٧.

أثر النثر :

سقطت بغداد على يد هولاكو وجيشه الزاحف من الشرق سنة ٦٥٦ للهجرة وخيم بجناحيه المرعبين على أغلب مناطق العراق ، ونال مبتغاه من الجاه والثروة وبعدها مدّ بصره إلى بلاد الشام ومصر ،وطمع فيهما ، فأرسل إلى صاحب الشام الملك الناصر يوسف (ت ٦٥٩هـ) رسالة يتهدده فيها ، ويطلب منه أن يسلم الشام بالأمان ، وإلاّ فأن مصيره كمصير الخليفة المستعصم بالله ورجال دولته . والرسالة – في جملتها – رصينة الأسلوب ، محكمة البناء ، سديدة العبارات فمن كتب هذه الرسالة ياترى وهولاكو لايعرف من العربية شيئاً ؟ لانجد لذلك جواباً ، فأن المصادر سكتت عنها سكوتاً مطبقاً . ويبدو لنا أن الذي كتبها كان مكرهاً ؛ لأنّ فيها تحذيراً بصورة غير مباشرة لأهل الشام من من غدر هولاكو وشره . ولا بأس أن أنقل جزءاً منها ليقف القارىء على حقيقتها ، ويتدبر معانيها،ويعرف مضمونها . تقول الرسالة على لسان هولاكو «...انا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدّمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة ، وكذلك يفعلون (٢) . واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات ، فكذب ، فواقعه الندم ، استوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة،وكانت نفسه خسيسة،فجمع المال،ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نما ذكره ، وعظم قدره ، ونحن نعود بالله من من التمام والكمال :

اذا تمّ أمرٌ دنا نقصُه
توقّ زوالاً اذا قيل : تم
اذا كنتَ في نعمةٍ فارعها
فأنّ المعاصي تُزيل النعم

(١) سورة النمل ، الآية ٣٤ .

وكم من فتىً باتَ في نعمةٍ
فلم يدرِ بالموتِ حتى هجم

اذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك الى طاعة سلطان الأرض ... تأمن شره ، وتنل خيره ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وأن سعيَه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى (١) . ولا تعوّق رسلنا عندك ...

أينَ النجاةُ ولا مناصَ لهاربٍ
ولي البسيطان : الثرى والماء
ذلّتْ لهيبتنا الأسود وأصبحتْ
في قبضتي الأمراء والوزراء (٢)

إن كاتب الرسالة — على ما يبدو — كان على منزلة كبيرة من العلم والأدب فأنه عني بالأسلوب الشائع آنذاك ، الذي يعتمد السجع والمقابلة ، ومزاوجة الألفاظ ، وتوشية الكلام بالآيات القرآنية ، والأبيات الشعرية . ويبدو لنا أن هولاكو لم يقف على مضمون الرسالة ، أو لم يعرف ما وراء الكلمات من معانٍ خفيّة ، فتراه ينعت نفسه بالمفسد والمهلِك . والأبيات الشعرية فيها أسلوبٌ التحذير وأخذ الحيطة والحذر وتوقي زوال النعمة .

وفي قوله : «فسارع برجالك وأموالك وفرسانك» ، تنبيه ، وكأنما يريد أن يقول كاتبها للملك الناصر يوسف : خذ أهبتك لملاقاة عدو غاشم ، وتهيأ لردّ عاتٍ آتيك لا محاولة . واستشهد بقوله تعالى : «وأن ليس للإنسان إلاّماسعى» .

انهارت عزيمة الملك الناصر يوسف ، وارتعشت فرائصه ، وأخذ الخوف منه مأخذاً ، ولم يستطع أن يجابه هولاكو ، فوقعت الشام فريسة سهلة بين فكيه ، وقتل الآلاف المؤلفة ، وقبض على الملك الناصر يوسف وأخيه الملك الظاهر غازي ، وجمع غفير من أتباعهما ، وأمر بضرب أعناقهم .

(١) سورة النجم ، الآية ٣٩.
(٢) السلوك ١ : ٤١٥.

استأسد هولاكو ، وظن أنه لن يلقى من يصرعه في حلبة الديار الاسلامية ، وأخذه الغرور ، فأرسل رسالة — وهي في رأينا كتبت بنفس القلم الذي كتبت به الرسالة السابقة — الى صاحب مصر المظفر قُطز (ت٦٥٨هـ) . ونحن نسوق جزءاً منها ليقف القارىء على طبيعة النثر آنذاك وأثره في النفوس ، يقول هولاكو : «... إنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وسلموا الينا أمركم قبل أن يكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطاء . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب ... فابشروا بالمذلّة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (١) . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . (٢) ... فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا . وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ... فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذّرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم » (٣) .

ألا يرى القارىء في هذه الرسالة أن كاتبها يكره النثر ، ويبطن لهم الحقد ، ويضمر لهم الشرّ . وإلاّ كيف تفسر قول هولاكو عن نفسه : «خلقنا من سخطه » و«نحن الكفرة»،ثم الاستشهاد بالآيات التي تظهر عواقب الظالمين؟ الذي نراه أن في الرسالة تنبيهاً واشعاراً للمظفر قُطز عن هول المصيبة التي تنتظره اذا لم يستيقظ ويأخذ الحيطة والحذر .

فلفظتا : أيقظناكم وحذرناكم الواردتان في الرسالة تبليغ للمظفر قطز بالتهيؤ لملاقاة هولاكو .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٩٣.

(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧.

(٣) السلوك ١ : ٤٢٧ .

لقد أفادت هذه الرسالة المظفر قطز ، وجعلته يحسب حساب الخصم الذي ينوي الزحف على مصر ، فأنه مزّق الرسالة بعد قراءتها ، وقبض على حاملها ولم يتخاذل كما تخاذل الملك الناصر يوسف ، بل زادته قوة وعزيمة ، حيث نادى للجهاد ، وجمع الجموع ، وسار بنفسه للقاء التتر ، فاشتبك معهم في عين جالوت (١) ، وردّهم على أعقابهم خاسرين .

إن مقدار الأدب النثري الذي وصل الينا ضئيل ، وتعليل هذه الظاهرة — في رأينا — هو قلّة التأليف والتصنيف والجمع آنذاك مما أدى الى ضياع جزء كبير منه . وقد أشارت الكتب المتأخرة الى فن المقامة الذي راج الإقبال على كتابته وشيوعه بين الناس في أثناء الزحف التتري ، من ذلك مقامة ظهير الدين الكازروني (ت٦٩٧هـ) التي جاءت وصفاً دقيقاً للوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل الخليفة ودخول الجيوش المتعطشة للدم والنهب بيوت الآمنين من الناس ، حيث هي «بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جائمة ، وقصور خاوية ، وعراص باكية . قد رحل سكانها ، وبان عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد » ويقول: «فوقفت أبكيها ، وأندب ربوعها ، ومن كان فيها :

وأنـــدبُ أطـــلالـهـا تـــارةً
وأبـكـي عـلى فـرقـة الـظـاعنينا
فـلـو ذهـبـت مـقـلـةٌ بـالـبـكـا
لـفـرطِ الـغـرامِ لـكـنـا عـمـيـنـا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع حالي . . . فرأيت حرم الخلافة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً. (٢) وهذه المقامة — وإن كانت تنساق في طريقة الحريري المليئة بألوان الزخارف اللفظية والمعنوية —

(١) عين جالوت : بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين (معجم البلدان ٤ : ١٧٧).
(٢) مقالة في قواعد بغداد ص ١٥ وينظر الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٧٨.

تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره. وهذا ما نلاحظه أيضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام، وبخاصة حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب، منها: «. . . هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام، وهملت عيون العناء كالغمام . . . وخفيت آثار المآثر ودرست، وطفئت أنوار المنابر وطمست، وحلبت العيون ماءها على حلب، وسنكبت الجفون دماءها من الصبب، والتفَّ عليها الختل والاختلال، واحتفَّ بها القتل والوبال، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار، واقتطفت من أغصانها نفائس النفوس والأعمار، فستر سفور السرور، ونشر ستور الشرور، وتخربت الدور والقصور، ونحرت الحور في النحور، وجرت عيونها على أعيانها، وهمت جفونها على شبابها . . . حتى بكى على الوجود الجلمد، وشكا إلى المعبود السرمد . . .» (١).

ويجب ان لا نغفل دور شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد أبن تيميّة (ت ٧٢٨هـ) في محاربة التتر الذين أغاروا على الشام مرة ثانية في أواخر القرن السابع للهجرة بقيادة غازان بن أرغون، وعاثوا في الارض فساداً، وقتلوا بنواحي دمشق نحو أربعمئة شخص، وأسروا نحو أربعة آلاف شخص، وهرب كثير من الشاميين إلى مصر والكرك والحصون المنيعة. لقد نهض ابن تيمية، وحثَّ الناس على الثبات والصمود، ونهاهم عن الفرار، وحضّهم على الجهاد، وكتب رسالة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٦٨٩هـ) أحد سلاطين المماليك في مصر، دعاه فيها إلى مؤازرة الشاميين ومعاضدتهم في مجابهة التتر. ثم سافر بنفسه إلى مصر، وقد استجاب السلطان لدعوته، وساق الجيوش إلى الشام، ووقعت معركة حامية بين الطرفين في سهل حوران، شارك فيها ابن تيمية ومن رافقه من العلماء، انهزم فيها التتر.

---

(١) تتمة المختصر في أخبار البشر ٢: ٣٠٨.

وقد ذكر ابن تيمية في رسالته فريضة الجهاد، فقال : «إن الله فرض على المسلمين الجهاد بالأموال والأنفس ، والجهاد واجب على كلّ مسلم قادر ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه فعليه أن يجاهد بماله إن كان له مال يتسع لذلك . . . فمن ترك الجهاد عذّبه الله عذاباً أليماً بالذلّ وغيره ، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره، فان هذا الدين لمن ذبَّ عنه »(١) ،وأشار إلى إقدام الكثيرين على المشاركة في هذا الجهاد، وبذل المهج والأرواح ، فقال :«والقلوب الساعة محترقة لنصر الله ورسوله على القوم المفسدين، حتى إن بالموصل والجزيرة وجبال الأكراد خلقاً عظيماً مستعدين للجهاد، مرتقبين العساكر ، سواء تحرك العدو أو لم يتحرك »(٢) . وبين ابن تيمية ما في حركة الجيش الإسلامي وتقدمه من فوائد جمّة، حصرها في أربع، هي :

١ — طمأنينة قلوب أهل البلاد حتى يعمروا ويزدرعوا ، وإلاّ فما دامت القلوب خائفة فلا يستقيم الحال .

٢ — إن البلاد الشمالية ونحوها فيها خير كثير ، ورزق عظيم، ينتفع به العسكر .

٣ — إنه يقوي قلوب المسلمين في تلك البلاد من الأعوان والنصحاء ، ويزداد العدو رعباً، وإن لم تحصل حركة فترت القلوب ، وربما انقلب قوم فصاروا مع العدو؛ فإن الناس مع القائم . ولما جاء العسكر إلى الشام كان فيه مصلحة عظيمة، ولو تقدّم بعضهم إلى الثغر كان في غاية الجودة .

٤ — إنهم إن ساروا أو بعضهم ، حتى يأخذوا ما في بلد الجزيرة من الإقامات والأموال السلطانية ، من غير إيذاء المسلمين كان من أعظم الفوائد، وإن ساروا قاطنين متمكنين نزلت اليهم أمراء تلك البلاد من أهل الأمصار والجبال . . . فإن أغلب أهل البلاد قلوبهم مع المسلمين (٣) .

---

(١) رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨.

بهذا الأسلوب السهل كتب ابن تيمية رسالته كي يفهمها الناصر محمد ابن قلاوون، وبالفعل حققت المطلب، وأثرت في نفسه، واستجاب لندائه. ولعل هناك رسائل أخرى عفى عليها الزمن ، أو أنها بين ركام المخطوطات المبعثرة في أنحاء المعمورة ، عسى الأيام تكشف عنها وتوقفنا على صور نثرية جديدة لعبت دوراً كبيراً في أحداث الزحف التتري .

قيمة الأدب التاريخية والاجتماعية :

يمكن أن يكون الأدب وثيقة مهمة، يقدّم مؤشرات لكثير من الأحداث والوقائع والقضايا التي لا نجد لها أحياناً ذكراً في كتب التأريخ والسير والتراجم.

وكما أن الأدب يستعين في تدوين تاريخه بالمصادر التأريخية ، فإن التاريخ يستند أحياناً إلى الوثائق الأدبية لاستكمال ما لم تستطع المصادر التأريخية استيفاءه أو ذكره ؛ وهذا يبدو أكثر وضوحاً في الأدب الذي يتصل بالخلفاء والأمراء والحكام، ويعاصر الوقائع، ويصور النكبات، ويجلي النكسات ، ويسهم في الأحداث السياسية ، ويفصل في المسائل الاجتماعية بعيداً عن العواطف الذاتية، والمشاعر الخاصة . وأدبنا الذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة يمكن أن يوضع تحت هذا الباب.

ولا تقتصر وظيفة هذا الأدب على الجانب السياسي الذي نوهنا به ، وانما تتعدى هذه الوظيفة إلى الكشف عن العديد من الصور الاجتماعية التي حفل بها المجتمع ، كما رأينا في قصيدة مجد الدين النشابي حينما كانت الدولة العباسية تحتضر ، كما استطاع أدبنا هذا أن يقدّم الكثير من الصور التي كشفت حالة الرعب والهلع التي تلت غزو هولاكو، وكانت أحياناً تحمل من العواطف النبيلة ، والمشاعر الرقيقة التي عكستها تلك الصور مما يجعلها جديرة بأن تعوض عن كثير من الجوانب التي افتقدتها ، كالجوانب الفنية وأمثالها التي لا نجد لها أثراً واضحاً في هذا الادب.

لقد سار هذا الادب في بعض جوانبه موازياً للوثائق التاريخية التي أشرنا اليها ، بحيث نجد قيمته الانسانية تمنحه القدرة على أن لا يهبط كما هبط أدب كثير بعده، كما منحته هذه الوظيفة القدرة على أن يحتفظ بعنصر البقاء.

يضاف إلى ذلك أن مصادر التاريخ قد افتقرت إلى الجانب العاطفي في سردها للأحداث ، بينما استطاع هذا الأدب ان يخلق المشاركة الوجدانية بينه وبين القارىء كما رأينا ذلك في الشعر الذي عرضنا لنماذج منه، وبخاصة في شعر شمس الدين محمود الكوفي . واسماعيل بن أبي اليسر، وكمال الدين ابن العديم، وسعدي الشيرازي ، وعلاء الدين الأوتاري . . . ذلك الشعر الذي صور هتك الأعراض، وسبي النساء، وقتل الأولاد، وحرق البيوت ، ونهب الأموال وأمثالها . . . مما يجعل لهذا الشعر قيمة انسانية حفظت له حياته، وضمنت له بقاءه في المراجع التاريخية والأدبية.

المصادر والمراجع

١ – اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد بن راغب الطباخ ، ت ١٣٧٠ هـ. المط العلمية – حلب ١٩٢٤ .

٢ – تاريخ الشعر العربي : محمد عبدالعزيز الكفراوي . مط نهضة مصر – القاهرة ١٩٦٧ .

٣ – تاريخ مصر : ابن إياس ، ت ٩٣٠هـ. المط الكبرى ببولاق – مصر ١٣١١ هـ .

٤ – تتمة المختصر في أخبار البشر : زين الدين عمر بن الوردي ، ٧٤٩ هـ. مط دار المعرفة – بيروت ١٩٧٠ .

٥ – الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة : عبدالرزاق ابن الفوطي . تح : د . مصطفى جواد . مط الفرات – بغداد ١٣٥

٦ – الخطط المقريزية : أحمد بن علي المعروف بالمقريزي ، ت ٨٤٥ هـ. مط النيل – مصر ١٣٢٤ هـ .

٧ – ذيل الروضتين : أبو شامة المقدسي ، ت ٦٦٥هـ ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية – القاهرة ١٩٤٧ .

٨ – ذيل مرآة الزمان : قطب الدين اليونيني ، ت ٧٢٦ هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية – الهند ١٩٥٤ .

٩ – السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي ، ت ٨٤٥ هـ. مط دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٣٤ .

١٠ – ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : د. عبدالعزيز الأهواني . مط دار الجبل – مصر ١٩٦٢ .

١١ – الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتّى سقوط بغداد : عبدالكريم توفيق العبود . دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٦ .

١٢ – عصر الانحدار : محمد أسعد طلس . مط دار الأندلس – بيروت ١٩٦٣ .

١٣ – الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقا ، ت٧٠٩هـ. مط دار صادر – بيروت ١٩٧٣ .

١٤ ــ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ. تح : د. احسان عباس . مط دار صادر ــ بيروت ١٩٧٣ .
١٥ ــ المختصر في أخبار البشر : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء ، ت ٧٢٢هـ . المط الحسينية ــ القاهرة ١٣٢٥ هـ .
١٦ ــ مطالع البدور : علاء الدين علي بن عبدالله الغزولي ، ت ٨١٥ هـ . مط ادارة الوطن ــ القاهرة ١٢٩٩ هـ .
١٧ ــ معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦ هـ. مط دار صادر ــ بيروت ١٩٥٧ .
١٨ ــ مقامة في قواعد بغداد : ظهير الدين الكازروني ، ت ٦٩٧ هـ. تح : كوركيس عواد وميخائيل عواد . مط الارشاد ــ بغداد ١٩٦٢ .
١٩ ــ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ، ت ٨٧٤ هـ . مط دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٣٦ .
٢٠ ــ نهاية الأرب : النويري ، ت ٧٣٣ هـ. مط دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٣٥ .
٢١ ــ الوطن في الأدب العربي : ابراهيم الأبياري . مط دار القلم ــ القاهرة ١٩٦٢ .